

تاريخ العلاقات السياسية والدبلوماسية الروسية بدول المنطقة

بقلم
الدكتور يفجيني سيدوروف
موسكو

لقد ازداد اهتمام روسيا بالعالم العربي ولاسيما منطقة الخليج العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لعدة أسباب، منها سعي الإمبراطورية الروسية لتنويع الأسواق العالمية الملائمة لتصدير وبيع



بضائعها، وكذلك حب الروس التقليدي للإطلاع على مناطق جديدة في العالم، وحياة الشعوب القاطنة فيها وعاداتها وتقاليدها، وأخيرا، وهو الأهم في اعتقادنا، الجبروت المتزايد للدولة الروسية القوية أصلا، ومواجهة إيران وتركيا العثمانية اللتين كانت سياستهما تشكل خطرا مستمرا على الوضع الأمني في منطقة حدود روسيا الجنوبية .

ومما سهل على روسيا، نوعا ما، مهمتها الخاصة بالإطلاع على منطقة الخليج العربي، هو ما توافر لديها من خبرة وفيرة في إقامة الاتصالات مع العالم العربي، وبالدرجة الأولى مع سوريا ومصر وفلسطين .

لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر خلافا حادا في العلاقات بين الدول الغربية، يعود إلى سعيها لبسط سيطرتها على منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي . وقد تمكنت بريطانيا من تحقيق هذا الهدف ، خاصة في جنوب الجزيرة العربية ، وعدد من إمارات الخليج ، وبعض مناطق إيران . وطبيعي أن الدول المنافسة الأساسية لبريطانيا آنذاك ، وهي روسيا وألمانيا وفرنسا ، لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء الزحف البريطاني ، والمثال على ذلك أن روسيا لبثت طلب المساعدة الذي كان قد توجه به إليها الشاه الإيراني في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر ، فأوفدت فصيلة قوزاقية إلى إيران لضمان أمن الشاه وحمايته في وجه أعمال الشعب والاضطرابات التي عمت إيران في ذلك الحين .

ومن اللافت للنظر أن إنجلترا كانت قد تمكنت من تثبيت مواقعها في دول الخليج العربي ، حيث عقدت اتفاقيات مع شيخ البحرين (عام ١٨٨٠) ، وشيخ الكويت (عام ١٨٩٩) ، وسلطان عمان (عام ١٨٧٣) ، كما أن إنجلترا لم تتورع عن اللجوء إلى كل الوسائل للحيلولة بون محاولات منافسيها الرئيسيين (ألمانيا وفرنسا) الرامية إلى إقامة اتصالات مع الشركات العربية والتجار العرب .

وقد قررت روسيا في أواخر القرن التاسع عشر إرسال عدد من سفنها وبواخرها إلى سواحل الخليج العربي ، وذلك لاستعراض جبروتها وقوتها العسكرية ، لكن بريطانيا تحركت بسرعة ، فأعلنت منطقة الخليج العربي " منطقة لمصالحها ونفوذها " ^(١) .

ومما لا شك فيه أن الأمراء والحكام الخليجيين تصوروا تماما مدى خطورة السياسة الإنجليزية الهادفة إلى تكريس تواجد بريطانيا في منطقة الخليج العربي ، فقد انتهج سمو الأمير مبارك الصباح سياسة حيادية متزنة وذكية جدا إزاء هذه المسألة ، سعيًا منه ، على ما يبدو ، للحفاظ على استقلال الكويت ، وإن كان هذا الاستقلال محدودا للغاية .

لكن إنجلترا لم تكتف بوضع منطقة الخليج العربي تحت رقابتها، بل أوصلت القضية إلى حد إجبار سمو الأمير مبارك على توقيع اتفاقية سرية، مما أسفر عن إطلاق اسم "الحكومة الأجنبية" على تركيا، من جهة، وتسمية منطقة الخليج العربي بأكملها بـ "بحيرة بريطانية"، من جهة أخرى .

وقد تمكنت الإمبراطورية الروسية، وسط هذه الأوضاع المعقدة والصراعات الحادة، من دخول منطقة الخليج، وجس نبضها، إن صح التعبير، من ناحية آفاق التبادل التجاري بينها وبين الدول والإمارات الخليجية .

لقد حاولنا أن نبين ونتابع، من خلال هذا البحث، أهم أحداث وتطورات الفترة التاريخية الممتدة بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حتى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٥) التي انتهت بهزيمة روسيا، مما أثر، بلا شك، تأثيرا بالغا في قدرتها على دخول منطقة الخليج العربي ثانية، ومنافسة النفوذ البريطاني هناك .

ولا يسعنا في ختام مقدمة هذا البحث إلا أن نشكر كل من ساهم في إعداده، بتقديم مختلف المراجع، سواء من معاهد البحوث العلمية، أو العلماء والباحثين الروس، ونود أن نخص بالشكر العاملين في (الأرشيف المركزي للأسطول الحربي السوفييتي) في لينينجراد "سان بطرسبورج" حاليا .

العالمية . وأولت الحكومة الروسية - انطلاقا من حاجاتها الاقتصادية والسياسية، وتطلعاتها العالمية - اهتماما بالغا في أواخر القرن التاسع عشر إلى المناطق التي ظلت فترة طويلة خارج مدار مصالح روسيا، بما في ذلك منطقة

لقد كان للتنمية الاقتصادية التي شهدتها روسيا في القرن التاسع عشر، انعكاسات ملحوظة في سياسة روسيا على الصعيد الخارجي، حيث أصبح الرأسماليون الروس في أمس الحاجة إلى البحث عن مزيد من الأسواق التجارية

الخليج العربي . وأطلق على هذا النهج اسم "السياسة الروسية الجديدة" .

وقد ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أولى الوثائق الدبلوماسية الروسية المكرسة لبلدان الخليج العربي ، ففي عام ١٨٩٢ مثلاً ، نشرت إحدى الصحف الروسية مقالة ، دار الحديث فيها عن قطر . وكتب هذه المقالة أ. كروجوف القنصل الروسي في بغداد آنذاك . وتضمنت المقالة وصفاً مسهباً للقبائل القاطنة هناك ، بما فيها قبيلة "بنو هاجر" بقيادة "آل ثاني" . وفي عام ١٨٩٩ نشرت مقالة أخرى بقلم أ. كروجوف الذي حاول فيها متابعة تاريخ الكويت على مدى القرون الأخيرة ، وإعطاء وصف واقعي مفصل لهذه الدولة الخليجية . وقام كروجوف بتحليل تاريخ الكويت ، وتحدث في هذه المقالة عن انطباعاته الشخصية من زيارته للكويت ، وتوصل إلى استنتاج مفاده أن هذه الدولة "كانت تميل في سياستها الخارجية إلى تركيا تارة ، وإلى إيران تارة أخرى ، لكنها ظلت مستقلة دوماً ، في جوهر الأمر . . . "

لقد تميزت الأوضاع السياسية في الخليج بنفوذ شديد لإنجلترا التي عقدت عدداً من المعاهدات والاتفاقيات

مع بعض حكام المنطقة ، بما في ذلك "معاهدة الصلح الأبدي" مع "الساحل القرصاني" في عام ١٨٥٣ ، ومعاهدات مع كل من قطر (عام ١٨٦٨) ، والبحرين (عام ١٨٨٠) ، والكويت (عام ١٨٩٩) . ونظراً لنفوذ إنجلترا الشديد ، وتأثير سياستها في الوضع القائم في المنطقة آنذاك ، فإن روسيا لم يكن بمقدورها تحقيق نجاح في سياستها الخليجية إلا بشرط إعداد خطة سياسية خاصة بهذا الشأن وتنفيذها . والحقيقة أن روسيا أعدت مثل هذه الخطة ، وركزت فيها على ضرورة زيادة هيبتها السياسية في دول الخليج العربي ، وتوسيع "الشبكة الإقليمية لمراكز المراقبة الدبلوماسية الروسية" ، وكذلك تولي (مصلحة الأسطول البحري الحربي الروسي) حل مسألة دخول السفن الحربية الروسية إلى الموانئ الخليجية . ولقد كان هناك عنصر هام آخر لهذه الخطة البعيدة المدى التي كانت قد تولت إعدادها روسيا ، طبقاً لظروف تطور دول الخليج العربي وخصائصه ، ألا وهو تنشيط أعمال الشركات التجارية الروسية في الجزيرة العربية ، وكذلك إقامة رحلات بحرية منتظمة بين موانئ روسيا وسواحل الخليج العربي .

لقد أصبح إنشاء وافتتاح شبكة من القنصليات الروسية إحدى الخطوات الأولى لسياسة روسيا النشيطة المكثفة في منطقة الخليج العربي . فقد أكد أ. ماشكوف سكرتير القنصلية الروسية في بغداد، في مذكرة بعث بها عام ١٨٩٦ إلى السفير الروسي في (القسطنطينية)، على وجوب إنشاء مثل هذه الشبكة من القنصليات الروسية، استشهادا في ذلك بمثال بريطانيا .

ولم تكن بحوزة روسيا وقتذاك في حقيقة الأمر إلا قنصلية واحدة بالمنطقة (في شوشتر)، لكن ماشكوف وصف نشاط هذه القنصلية بأنه "غير مرض"، كما وصف المعلومات التي كانت قد قدمتها هذه القنصلية إلى روسيا بأنها "معلومات تحمل طابعا عرضيا" .

وقد قامت روسيا في إطار سياستها الجديدة، في عام ١٩٠١ بإنشاء عدد من القنصليات الجديدة في دول الخليج العربي (في البصرة مثلا)، وافتتاح قنصليتين عامتين في كل من (بغداد) و (بوشهر) . ووضعت تحت تصرف القنصلية العامة في (بوشهر) فصيلة قوزاقية وسفينة (طراد) .

لقد شهدت هذه الفترة التاريخية تطورا سريعا للصلات الاقتصادية بين روسيا ودول الخليج العربي . وأبدى الاقتصاديون الروس اهتماما بالغاً بتطوير شبكة الطرق والمواصلات، وخططوا لمد أنابيب (الكيروسين) من (باكو) إلى دول الخليج العربي، ومد سكة حديد عبر أراضي إيران . وكانت البواخر الروسية تمخر، منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى (عام ١٩١٤)، عباب مياه الخليج العربي، بنقلها الركاب ومختلف أنواع البضائع من ميناء أوديسا إلى موانئ دول الخليج العربي . وكانت البواخر الروسية تابعة لـ (الجمعية الروسية للملاحة البحرية والتجارة)، وقامت بأربع رحلات سنويا .

وقد زارت أكثر من ٦٠ باخرة موانئ الخليج العربي في الفترة ما بين عامي ١٩٠٣ و ١٩١٤ . ويدل على أهمية هذا الخط، أن وزارة الحربية التركية كانت تستخدمه في نقل قواتها إلى ولاية (البوسفور) . ومن الأهمية بمكان التنويه بأن السفن الروسية كانت تتوجه من (القسطنطينية) إلى (البصرة) بدون المرور بـ (بورسعيد) . وأصبحت باخرة (كورنيلوف) أول باخرة تجارية روسية

تدخل في عام ١٩٠١ الخليج العربي، حيث وصل على متنها وكلاء مختلف الشركات الروسية الشهيرة لعرض نماذج من البضائع على شركائهم الخليجيين . وفي عام ١٩٠٣ قام رجل أعمال روسي، هو أ. كوسيك، بزيارة لمنطقة الخليج العربي، بهدف دراسة تطوير العلاقات التجارية مع هذه المنطقة، الأمر الذي أعطى دافعا قويا لإقامة العلاقات الاقتصادية والتجارية المنتظمة بين روسيا وبلدان الخليج العربي . واشتملت صادرات روسيا إلى منطقة الخليج آنذاك على الأخشاب، والأواني، والأسمنت، والأثاث، والكبريت، والكبروسين . ولقي "الدمور" الروسي إقبالا خاصا من تجار دول الخليج العربي، ومما برهن على شهرته وشعبيته الواسعتين أن بعض أنواعه، قلد صنعها في إنجلترا، لبيعها، لاحقا، في دول الخليج، وكأنها روسية .

أما روسيا فقد استوردت من دول منطقة الخليج العربي التمر، والتبغ، وكذلك بعض أنواع الحبوب .

قام أصحاب البنوك الروسية بأولى خطواتهم في منطقة الخليج في تلك الفترة ذاتها، الأمر الذي أسفر عن افتتاح عدة

فروع للبنوك الروسية، ومنها مثلا، "البنك الروسي" في بندر (بوشهر) .

وجدير بالذكر أن نشاط رجال الأعمال وأصحاب كبريات الشركات التجارية الروسية في دول الخليج العربي، صاحبه دراسة المنطقة من حيث تقدير آفاق العلاقات التجارية بين روسيا ودولها .

كتب القنصلان الروسيان في بغداد والبصرة آنذاك، أ. آداموف، وأ. سافينوف : "إننا، إذ نحاول دخول السوق التجارية المثالية بالنسبة لنا، إنما ينبغي ألا ننسى أن رجال الأعمال من دول أوروبا الغربية، والذين يعملون هنا منذ زمن بعيد، سبق وأن درسوا بدقة ظروف هذه السوق بحذافيرها، وتأقلموا مع الأوضاع المحلية واستقروا هنا، كما أن لديهم مواقع متينة في منطقة الخليج العربي " . وأردفا يقولان أنه "لابد لنا، لتحقيق نجاح في صفقاتنا التجارية، من دراسة المنطقة بعمق من الناحية التجارية، حيث يجب أن يشارك في هذه العملية البالغة الأهمية، وكلاء (الجمعية الروسية للملاحة البحرية والتجارة)، الذين سبق أن أقاموا صلات لا يستهان بها مع

التجار الأجانب، مما أسفر عن توفير منطلقات ملائمة للإطلاع على التجارة المحلية". وياشر أصحاب الشركات التجارية الروسية في جمع المعلومات اللازمة لهم لدراسة أوضاع الأسواق الخليجية، والبحث عن وكلاء محليين لتسويق البضائع الروسية وبيعها، الأمر الذي كان من شأنه أن يساعد روسيا على تفادي نشوب خلافات حادة مع إنجلترا المسيطرة سياسيا واقتصاديا وتجاريا على منطقة الخليج العربي . ولم يكن سرا على أحد وقتذاك، أن إنجلترا، كانت انطلاقا من كل هذه الاعتبارات، مستعدة لاستغلال أية ذريعة بهدف إثارة نزاع مع روسيا .

لكننا لا نخطئ إذا قلنا، أن أنظار روسيا المتجهة نحو الخليج العربي لم تكن محصورة في خطط ومشاريع تجارية صرفة . فقد كان البروفيسور بوغويا فلينسكي العالم الروسي الشهير، عضو الجمعية العالية لهواة العلوم الطبيعية والإنثروبولوجيا أول مواطن روسي زار البحرين . وكان الهدف من رحلته هذه يكمن في إجراء شتى البحوث بهدف دراسة عالم الحيوانات . والحقيقة أن التقرير الذي أعده البروفيسور بوغويا فلينسكي حول نتائج رحلته إلى البحرين

(إبريل - مايو ١٩٠٢)، لا يعتبر مجرد وثيقة تتحدث عن أولى الصلات بين الشعبين فحسب، بل وكذلك يعتبر بحثا علميا فريدا في نوعه، يدور الحديث فيه عن الحيوانات الخاصة بمنطقة جزر البحرين في مطلع القرن العشرين^(٢) . أضف إلى ذلك أن البروفيسور بوغويا فلينسكي حظي ومازال يحظى بشهرة واسعة بين الأوساط العلمية الروسية، لكونه جمع أول مجموعة في روسيا تشتمل على مختلف المواد المتعلقة بحيوانات منطقة الخليج العربي . وأثناء زيارته هذه استقبله شيخ البحرين، كما أجرى بوغويا فلينسكي مباحثات هامة مع بعض الشخصيات البحرينية البارزة .

ويستدل من تقريره أن البحرينيين أبدوا استعدادا لتطوير العلاقات التجارية مع روسيا، وعبروا عن موافقتهم على دخول البواخر التجارية الروسية إلى البحرين، وأولوا اهتماما بالغا بحالة العلاقات بين روسيا وتركيا، وبحياة المسلمين في روسيا والعاصمة موسكو وعدد المساجد فيها وحالتها . ومما زاد من اهتمام البحرينيين بالحياة في روسيا، أن

الإنجليز الذين وضعوا نصب أعينهم هدف تشويه وقائع الحياة في روسيا، روجوا مزاعم تقول أن "المسلمين في روسيا يتعرضون للظلم والاضطهاد، وأن السلطات الروسية تنتهج السياسة الرامية إلى إرغام المسلمين على اعتناق الدين المسيحي".

لقد سبق أن ذكرنا في مستهل هذا البحث أن الحكومة الروسية اتخذت عددا من الخطوات الهادفة إلى تطوير العلاقات بين روسيا ودول الخليج العربي، بما في ذلك إرسال السفن الحربية الروسية إلى هذه المنطقة. ففي الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٣ زارت منطقة الخليج العربي وموانئها أربع سفن حربية روسية، كانت أولاها سفينة "غيلاك" للدفاع الساحلي وكانت بقيادة (البارون أندرينيوس) قبطان السفينة^(٣).

ويستدل من أرشيف السياسة الخارجية الروسية أن الهدف من رحلة "غيلاك" كان يكمن في زيارة أهم الموانئ الخليجية، واستعراض علم الأسطول الحربي الروسي أمام سكان دول الخليج، وبالتالي تغيير قناعتهم الراسخة

بأن موانئ الخليج العربي مفتوحة أمام السفن الحربية البريطانية فقط.

في الساعة التاسعة من مساء الرابع من مارس عام ١٩٠٠ رست "غيلاك" في خليج الكويت، أمام الساحل الكويتي، وعقب وصول السفينة إلى المرفأ الكويتي صعد إلى متنها سمو الشيخ سالم بن مبارك نجل أمير الكويت الشيخ مبارك وسلم إلى قبطان السفينة رسالة شفوية من سمو الأمير الذي دعا قبطان السفينة إلى زيارته. وقد قبل قبطان السفينة هذه الدعوة بالشكر، لكنه اعتذر لسوء حالته الصحية، وأوفد نيابة عنه دبلوماسيين روسيين هما "كروجلوف" و "أوفيسيينكو"، وكذلك المـلازم "ساربيتشيف" لزيارة سمو الأمير مبارك. وفي أثناء المباحثات التي جرت بين الطرفين أبدى سموه تعاطفه تجاه الشعب الروسي وعرض على الوفد الروسي العمل على المضي قدما في تطوير التعاون بين الدولتين في شتى المجالات، ولا سيما في المجال السياسي. ولكن كروجلوف أبدى بعض التحفظات إزاء هذا الاقتراح، فأعلن أن "مصالحنا في الكويت محصورة الآن في رعايتنا لعدد محدود من الروس الذين

يشترون هنا مختلف أنواع البضائع لتصديرها إلى روسيا، الأمر الذي لقي تأييدا وتفهما كاملين من سمو الأمير . . . " .

وجدير بالذكر أن المباحثات الناجحة مع سمو الأمير مبارك مكنت الدبلوماسيين الروس من التوصل إلى استنتاج مفاده أن هناك آفاقا لا بأس بها لاتساع نطاق نشاط الشركات التجارية الروسية في منطقة الخليج العربي . ومما يثبت هذا الاستنتاج، التقرير الذي أعده أ. كروجلوف حول رحلة السفينة "غيلاك" إلى دول الخليج العربي . فبعد التأكيد على ضرورة مواصلة إرسال السفن الحربية الروسية إلى هذه المنطقة، عبر كروجلوف عن رأي مفاده أن "السفن الروسية يجب أن تبقى هناك خلال فصل الشتاء كله"، الأمر الذي من شأنه، على حد رأي كروجلوف، "ألا يتيح لسفننا فرصة دخول بعض الموانئ الخليجية فحسب، بل وكذلك كل الموانئ المطلة على الساحلين، حيث يمكن لسفننا أن تبقى فترة طويلة في كل منها، بما في ذلك قطر، ومضيق هرمز، والبحرين، و (الساحل القرصاني)" . وأردف كروجلوف قائلا "إن كل ذلك يمكن بطرس بورج (عاصمة روسيا

آنذاك) من الإطلاع على كل تفاصيل الحياة السياسية لمنطقة الخليج العربي، وبالتالي العمل لمصلحة الوطن والتعاون مع كل حلفاء روسيا السياسيين، وإلا فإن تطورات مفاجئة قد تطرأ على المنطقة، يتعذر التنبؤ بعواقبها . . . " .

في ديسمبر عام ١٩٠١ زارت منطقة الخليج العربي ثاني سفينة حربية روسية وهي الطراد "فارياج" الشهير^(٤) . ففي الثاني من ديسمبر وصلت السفينة إلى ميناء بندر بوشهر، حيث ناقش قبطان السفينة (ف. بار) في حديث أجراه مع القنصل "أوفسيينكو" المسائل المرتبطة بخط سير السفينة في مياه الخليج لاحقا . وبعد مضي بضعة أيام، وتحديدا، في الساعة الخامسة من مساء الثامن من ديسمبر عام ١٩٠١، رست السفينة في خليج الكويت . وإثر وصول السفينة إلى الساحل الكويتي قام بزيارتها سمو الشيخ جابر بن مبارك نجل أمير الكويت، والذي كان يتولى إدارة المدينة أثناء غياب أبيه . وفي أثناء المباحثات التي جرت بين الطرفين، عرض قبطان السفينة الروسية على الشيخ جابر بن مبارك صورتين (بورتريه) للقيصر الروسي وقرينته، وبعد ذلك قام الشيخ جابر بجولة تفقدية

وجيزة داخل السفينة، رافقه فيها كل من القنصل الروسي (أوفسيينكو)، وقبطان السفينة (ف. بار)، وقد استمرت زيارة الشيخ جابر للسفينة أكثر من ساعتين، وفي أثناء التوديع، دعا الشيخ جابر القنصل الروسي وقبطان السفينة إلى زيارة بيته . وقبل الطرف الروسي هذه الدعوة بالشكر، وزار القنصل وقبطان الطراد بيت الشيخ جابر، حيث عاد القبطان (ف. بار) على أثر هذه الزيارة إلى متن السفينة، أما القنصل (أوفسيينكو) فتوجه إلى مقابلة الأمير مبارك الذي كان يقود في ذلك الحين قواته لمحاربة (بني عامر) وحاكم نجد . وقد لقي القنصل الروسي استقبالا رائعا لدى سمو الأمير مبارك الذي صرح في نهاية الحفل بأنه "يتمنى أن يستضيف، في المستقبل أيضا، الروس القادمين إلى الكويت، وأبدي اهتماما فائقا بالبضائع الروسية التي تنقلها إلى المنطقة البواخر التجارية الروسية . . ."

لقد تركت مقاييس الطراد الضخمة، ومواصفاته القتالية الفريدة في نوعها، وكذلك بشاشة البحارة الروس، وفن فرقة الآلات الموسيقية النحاسية التي أدت، لأول مرة في منطقة الخليج

العربي، الموسيقى والأغاني الشعبية الروسية، انطباعات لم يكن من الممكن نسيانها عند الجمهور الكويتي . فقد ظل الكويتيون يصفقون طويلا للفرقة، مبدين بذلك إعجابهم الفائق بالموسيقيين الروس . وكتب القنصل أوفسيينكو في أحد تقاريره الموجهة إلى (بطرس بورج) أن "وصول الطراد (فارياج) إلى موانئ دول الخليج العربي يعتبر "الخبر رقم ١" في الأحاديث (اللامتناهية) بين العرب في مختلف مدن دول الخليج العربي والجزيرة العربية" . ومن اللافت للنظر أن القنصل (بوغويافلينسكي) ذكر معلومات مماثلة في تقاريره المرسلة إلى روسيا، فكتب في أحدها أنه "ساد العرب قبل وصول الطراد (فارياج) إلى السواحل الخليجية، رأي مفاده أن الروس يملكون قوات برية ضخمة، لكن ليس لديهم أسطول بحري على الإطلاق" . ومضى (بوغويافلينسكي) قائلا : " . . . لذا فإن وصول الطراد (فارياج) الذي تفوق كثيرا، من حيث مواصفاته القتالية، على السفن الإنجليزية التي كانت قد دخلت موانئ المنطقة، ترك

لدى العرب انطباعات لم تمنح من ذاكرتهم لفترة طويلة".

وقد أصبح الطراد الثقيل الحديث (اسكولد) تحت قيادة القبطان "رويتسينشتاين"، ثالث سفينة حربية روسية تزور موانئ الخليج العربي . وقام الطراد (اسكولد) في شهري نوفمبر - ديسمبر عام ١٩٠٢، - وكان على متنه القنصل الروسي العام في البصرة (آداموف) - بزيارتين لكل من مسقط وبندر بوشهر، حيث عملت فيهما آنذاك الهيئتان الإداريتان لكل الموانئ الإيرانية المطلة على الخليج وكذلك موانئ الكويت . ولقي طاقم (اسكولد) استقبالا حارا في الكويت التي وصل إليها الطراد في ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٢ .

وحظي (اسكولد) مثل سابقه (فارياج) بإعجاب العرب، لما تميز به من الأبعاد الضخمة، وعدد أفراد طاقمه (٥٨٠ فردا)، وعدد مدافعه (٣٥ مدفعا) . وأكد بعض الدبلوماسيين الروس في تقاريرهم الموجهة إلى (بطرس بورج)، أن "دخول السفن الروسية إلى موانئ الخليج العربي، ومنها (فارياج) و (اسكولد) يعتبر دلالة قاطعة على الجبروت

الحقيقي لروسيا البعيدة، جغرافيا، عن هذه المنطقة".

وكان الطراد (بويارين) تحت قيادة القبطان (ساريتشيف) آخر سفينة حربية روسية، تزور منطقة الخليج العربي في الفترة التاريخية التي يدور الحديث عنها في هذا البحث .

وجدير بالذكر أن زيارة (بويارين) للخليج صادفت زيارة أخرى قام بها إلى هذه المنطقة الطراد "إينفيرنة" الفرنسي . وتلخص الهدف من هذه البعثة المشتركة في استعراض القوة البحرية التابعة للدولتين الصديقتين لإمكانياتهما الكفيلة باتخاذ خطوات جماعية، إذا اقتضت الضرورة". وقد جرت هذه الزيارة في فبراير ومارس عام ١٩٠٣ . وقام قبطانا السفينتين، في طريقهما إلى الخليج، بزيارة لمسقط، حيث استقبلهما السلطان فيصل، كما قاما، بمرافقة القنصلين الروسي والفرنسي، بزيارة لمحافظ (بندر بوشهر) .

في ٢٠ فبراير عام ١٩٠٣ رسا الطرادان في خليج الكويت . وكان القنصل الروسي (أوفسينكو) موجودا على متن (بويارين) . وعقب وصول السفينتين إلى الساحل الكويتي، تردد

عليهما سكرتير ديوان سمو الأمير مبارك، ثم زار الطرادين سمو الشيخ صباح بن مبارك . وفي ٢١ فبراير قام قائدا الطرادين، بمرافقة القنصل (أوفسيينكو) بزيارة لسمو الأمير مبارك . وأجرى الوفد الروسي مفاوضات مع سموه، وكذلك مع عبد العزيز، النجل الأكبر، ولي العهد لصاحب السمو عبد الرحمن بن فيصل بن سعود أمير نجد . وهكذا فإن بعثة (بويارين) لم تأت بفائدة للدبلوماسية الروسية، من حيث توطيد الصلات مع دول الخليج العربي فحسب، بل وكذلك من حيث تهيئة جو يسوده التفاهم التام في العلاقات مع أمراء شمال الجزيرة العربية من آل سعود .

وانطلاقا مما سبق ذكره، يمكن التوصل إلى استنتاج مفاده أن وزارة الخارجية الروسية قد وضعت نصب عينيها، في سياستها الخليجية، هدف إقامة وتطوير العلاقات السياسية والتجارية مع الكويت . وقد بذلت الأوساط الدبلوماسية الروسية، في أواخر القرن الـ ١٩، وأوائل القرن الـ ٢٠، قصارى جهودهم لزيادة نشاطهم في الكويت . ولا يفوتنا الإشارة إلى أن

روسيا بدأت تولي اهتماما بالغاً بالكويت ابتداء من التسعينات من القرن التاسع عشر، وسبق أن ذكرنا أن أول وثيقة دبلوماسية روسية بهذا الصدد يعود تاريخها إلى عام ١٨٩٩ . ويمكن اعتبار أن عام ١٨٩٦ قد شهد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا والكويت، علما بأنه زار الكويت في هذا العام بالذات ولأول مرة، دبلوماسي روسي، ألا وهو القنصل الروسي في بغداد (ف. ماشكوف) . وأقيمت بين الدولتين علاقات وثيقة جدا بعد تولي سمو الشيخ مبارك زمام الحكم في الكويت . وكان القنصل الروسي (كروجلوف) أحد الأنصار الرئيسيين، بين الأوساط الدبلوماسية الروسية، للتقارب مع الكويت . وحاول (كروجلوف) مرارا إقناع السفير الروسي في القسطنطينية، بضرورة تطوير العلاقات مع هذه الدولة الخليجية . واعتبر (كروجلوف) تطوير العلاقات التجارية بين الدولتين إحدى المهام الرئيسية للسياسة الخارجية الروسية . وفي مارس عام ١٨٩٩ قام بزيارة للكويت، بمبادرة من (كروجلوف)، أحد أكثر التجار الروس شهرة، هو (أفاناسييف) الذي يمكن اعتباره أحد "رواد" إقامة وتطوير

العلاقات التجارية بين روسيا والكويت .

وفي أغسطس عام ١٩٠٠ وصل إلى الكويت، بتكليف من وزارة المالية الروسية، عالم الاقتصاد الروسي الشهير (سيروميانتنيكوف). وكان الهدف من زيارته للكويت هو دراسة إمكانيات تطوير التجارة الروسية الكويتية وتوسيع آفاقها .

ولا يغيب عن البال أن (سيروميانتنيكوف) بوصفه عالم اقتصاد محنكا، لم ينظر إلى الكويت على أنها مجرد "سوق واسعة لبيع البضائع الروسية بشتى أنواعها، بما فيها (الكيروسين)، والسكر، والجوخ، و (الدمور) فحسب، بل وكذلك "رأس جسر" ملائم لتسويق هذه البضائع في المناطق الوسطى من الجزيرة العربية، بما في ذلك مدينتا الرياض و (حائل) وشاطره كروجلوف رأيه هذا .

وقد أجرى (سيروميانتنيكوف) أثناء زيارته للكويت مباحثات مع سمو الأمير مبارك، طرح خلالها بمبادرته الشخصية، فكرة "عقد تحالف سياسي بين روسيا والكويت". والحقيقة أن (سيروميانتنيكوف) بذل محاولة خرقاء،

سعى منه لإقناع سمو الأمير مبارك " بالتوجه إلى روسيا بطلب المساعدة" وأعلن بدون تأمل، أن "قوات سمو الأمير غير كبيرة وأن مجرد سفينتين روسيتين تكفيان للاستيلاء على الكويت". ولكنه، وبالرغم من بعض الهفوات من الطرف الروسي فقد تميزت المباحثات الروسية الكويتية بطابع إيجابي، لأن سمو الأمير مبارك - وإن اعتبر تصريح (سيروميانتنيكوف) الآنف الذكر بمثابة تهديد للكويت - إلا أنه لم يرفض فكرة احتمال عقد التحالف مع روسيا . وجدير بالذكر أن سمو الأمير مبارك عاد بعد قليل إلى طرح هذه الفكرة، حين وجد نفسه (بعد هزيمة قواته على أيدي بني شمر وآل رشيد) أمام خطر بعثة الأتراك التنكيلية بقيادة قائد الفيلق السادس (فوزي باشا). إن خطر الغزو التركي أرغم سمو الأمير مبارك على التوجه بطلب المساعدة إلى الإنجليز، ثم إلى روسيا . وأحاط سمو الأمير مبارك، عن طريق الوسيط الروسي (علييف)، كلا من (كروجلوف) و (أوفسينكو) علما بأنه مستعد لإتاحة الفرصة أمام روسيا، لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بضمان أمن الكويت بوصفها

دولة مستقلة يحكمها آل مبارك الصباح .

والحقيقة أن توجه سمو الأمير مبارك بطلب المساعدة إلى روسيا لم يسفر عن أية نتيجة، ذلك لأن السلطات الروسية في بطرس بوج أخذت تكتيك الماطلة في معالجة هذه القضية . وفي مايو عام ١٩٠١ أصدر وزير الخارجية الروسي (ليليزدورف) تعليمات إلى مساعديه، جاء فيها ما يلي :
". . . أرجو إحاطة (كروجلوف) علما بأن أي تدخل في شئون الكويت أمر غير مرغوب فيه بسبب غموض الأوضاع القائمة هناك، الأمر الذي قد ينطوي على عواقب وخيمة . . ."

ومما لاشك فيه أن سبب مثل هذا الموقف يعود إلى شكوك السلطات الروسية آنذاك في صدق نوايا سمو الأمير مبارك . فقد جاء في التعليمات السرية التي أصدرها السفير الروسي في القسطنطينية (زينوفييف) إلى القنصل الروسي في البصرة (آداموف)، في ٣١ أغسطس عام ١٩٠١، أن "السلطات في بطرس بوج محرومة من إمكانية تلبية طلب سمو الأمير مبارك الذي لا يمكن الثقة بصدق نواياه . . ."

ولابد من التنويه هنا بأنه كان هناك دافع آخر، استرشد به الدبلوماسيون الروس في سياستهم الخليجية، ألا وهو الرغبة في الحؤول دون إضعاف موقع تركيا "المفرط"، وما كان يمكن أن يترتب على ذلك من زيادة نفوذ إنجلترا . وقد جاء في التعليمات المذكورة آنفا "أنه لا يمكن حرمان سمو الشيخ مبارك من الآمال في تعاطفنا معه . أما إذا علم سموه بقرارنا بشأن طلبه، فإني أقترح عليكم أن توضحوا له أننا، انطلاقاً من نفوذنا في القسطنطينية، سنكون مستعدين دوماً للدفاع عن مصالحه الشرعية وطلباته الموجهة للحكومة التركية، وكذلك الضغط عليها لإقناعها بضرورة التخلي عن التطاول على الاستقلال الذي تتمتع به الكويت الآن . لكننا، من جهة أخرى، يجب أن ننصح سمو الشيخ بعدم الإقدام على أية خطوة تؤدي إلى تدهور العلاقات بين الكويت وتركيا، وكذلك عدم الإصغاء إلى أقوال الإنجليز الذين يتربصون حلول فرصة ملائمة لهم لإحكام السيطرة الكاملة على ساحل الخليج العربي بكامله . ولا يغيب عن البال أن الإمبراطورية التركية الضعيفة لا تشكل خطراً على استقلال هذه الدولة

العربية، بخلاف إنجلترا التي قد تتخذ مطامعها المغرضة، بتأثير بعض العوامل، أبعادا واسعة النطاق".

لقد أدى الموقف المتردد للدبلوماسية الروسية إلى أن عادت إنجلترا مجددا إلى خشبة المسرح السياسي. والحقيقة أن الإنجليز تمكنوا من تفادي الغزو التركي في الكويت التي وجدت نفسها خاضعة لنفوذ إنجلترا الشديد. وينبغي التنويه بأن الإنجليز تابعوا باهتمام بالغ محاولات روسيا الهادفة إلى إقامة اتصالات جديدة مع سمو الشيخ مبارك. فقد أشار القنصل الروسي في البصرة (توخولكا) الذي أجرى مباحثات مع الشيخ سالم نجل سمو الشيخ مبارك، إلى أن "الشيخ سالم لم يعقد اجتماعات معي إلا بحضور ضابط إنجليزي برتبة نقيب يدعى (شاكسبير)".

إلا أن انتصار إنجلترا السياسي في عام ١٩٠١ لم يكن كاملا. فقد استطاعت روسيا، الحفاظ على الوضع القائم، أي الحيلولة دون تحويل الكويت إلى محمية بريطانية. وفي سبتمبر عام ١٩٠١ ساهمت روسيا في التوصل إلى عقد اتفاقية بين إنجلترا

وتركيا بشأن الحفاظ على الأمر الواقع في الكويت. وعندما حاول قبطان طراد إنجليزي، إثر وصوله إلى الكويت في ديسمبر عام ١٩٠١، إعلان هذه الدولة "محمية بريطانية"، أبدت روسيا رد فعل حادا على هذه المحاولة، كما أن تركيا هددت إنجلترا بأنها ستتوجه إلى محكمة لاهاي الدولية. وقد أجبرت كل هذه العوامل إنجلترا على الإعلان عن "التخلي عن خدمات الضابط البريطاني"، وتأجيل تحقيق مخططاتها الرامية إلى غزو الكويت. وبالرغم من نفوذ إنجلترا الشديد، فإن العلاقات بين روسيا وسمو الأمير مبارك كانت جيدة بوجه عام.

سبق أن ذكرنا أن السفن والبواخر الروسية لقيت دوما استقبالا حارا في الكويت. كما لقي بوغويافلينسكي أثناء زيارته للكويت استضافة رائعة هناك. وكتب بوغويافلينسكي في تقريره أن "سموه طلب مني أن أنقل إلى القنصل العام في بندر بوشهر (أوفسيينكو) رغبته الصادقة في مراسلته، مؤكدا عند ذلك أنه "لمن دواعي سروره استقبال الروس"، وأنه "مستعد دوما لبذل كل ما بوسعه لتلبية كافة حاجاتهم". وحينما سأله بوغويافلينسكي عما إذا كان

بوسعه أن يقدم أية خدمة لسمو الشيخ،
أجاب سموه قائلا "أرجو أن تقدموا إلي
خدمة واحدة فقط، إذا كان ذلك
بإمكانكم، أرجو أن تبلغوا سيادة
الإمبراطور في بطرس بوج أنني صديق
للروس، وأنني أعتبرهم بمثابة إخوة
لي"

وينبغي القول أن الكويت كانت
دولة وحيدة في منطقة الخليج العربي،
أتيح لها فيها للدبلوماسية الروسية
إمكانات واقعية لأداء دور مستقل فعال
. وإذا حاولنا التوصل إلى استنتاج بشأن
"نتائج الصراع الدولي من أجل السيطرة
على منطقة الخليج العربي"، فيمكن
القول أن روسيا لم تحقق في المنطقة، في
تلك الفترة التاريخية، كل الأهداف
التي كانت تصبو لتحقيقها .

ففي ٣١ أغسطس عام ١٩٠٧ تم
التوقيع على "اتفاقية بطرسبورج" التي
أدت في حقيقة الأمر إلى خروج روسيا
من حلبة الصراع في بسط السيطرة على
منطقة الخليج .

وفي الختام، وبعد عرض كل
الوقائع والأحداث التي ورد ذكرها في
هذا البحث، يمكن أن ننتقل إلى تحليل

أسباب إخفاق سياسة روسيا
"الخليجية" آنذاك . ففي أواخر القرن
ال ١٩ وأوائل القرن ال ٢٠، لم تخط
روسيا إلا أولى خطواتها في الخليج
العربي وبالتالي فإن مواقعها لم تكن
متينة هناك مثل مواقع الإنجليز . وثمة
وثيقة بالغة الدلالة في هذا الصدد ألا
وهي "تعليمات السفير الروسي في
القسطنطينية (زينوفيف) إلى القنصل
العام في البصرة (آداموف)" جاء فيها
أنه "في ظل الأوضاع الحالية، وفي
ظروف غياب سند متين يمكن الارتكاز
إليه في منطقة الخليج العربي، فإننا
مضطرون للامتناع عن المشاركة الفعالة في
الحياة السياسية هناك . ونظرا لهذه
الاعتبارات، فإن مصلحتنا تكمن في
الحفاظ على الأمر الواقع، مما يستثني
احتمال حدوث تعقيدات مفاجئة
ضخمة"

من الواضح تماما أن الإنجليز صانوا
بشدة مواقعهم في منطقة الخليج، سعيا
منهم للحاق بركب المنافسين . فمثلا،
كانت السفن الإنجليزية ترافق، في
حالات عديدة، مثيلاتها الروسية،
حيث أن إنجلترا أوفدت الطراد
(أمفيتريت) إلى الخليج عقب زيارة

الطراد (فارياج) الروسي لموانئها .
وأتيحت لروسيا فرصة ملائمة لتطويع
علاقاتها مع الكويت، ذلك أن سمو
الأمير مبارك كان يسعى جاهدا لتوطيد
استقلال دولته، وتفادي تزايد نفوذ
تركيا وإنجلترا . لكن روسيا فوتت هذه
الفرصة لعدة أسباب، أهمها أن التنافس
السافر مع إنجلترا لم يتطابق مع
مصلحتها، كما أن إنجلترا استطاعت
أن تستغل، بصورة أفضل بكثير من
روسيا، خطر الغزو التركي لها .

وجدير بالذكر أن هناك، في
اعتقادنا، سببا هاما آخر لإخفاق روسيا
في محاولاتها الرامية إلى تثبيت مواقعها
في منطقة الخليج العربي، ألا وهو هزيمة
روسيا في الحرب الروسية اليابانية عام
١٩٠٥، حيث كان من المستحيل، بعد
إنهاؤها، أن تمضي روسيا قدما في
صراعها من أجل إقامة السيطرة على
الخليج العربي . وكانت الخطة الروسية

الجديدة على الصعيد الخارجي، والتي
كان قد طرحها وزير الخارجية الروسي
الجديد (إيزفولسكي) تكمن في إيلاء
اهتمام بالغ بتسوية الخلافات
الإنجليزية الروسية، والتخلي عن أداء
دور فعال في آسيا، بما في ذلك الخليج
العربي . وهكذا فإن المحاولة الأولى التي
اتخذتها روسيا لتمتيع مواقعها في
الخليج العربي باءت بالفشل . لكن
الأهم من ذلك كله، أنه وضعت آنذاك،
بداية لإقامة علاقات بين روسيا ودول
الخليج العربي . وتطورت هذه العلاقات
لاحقا، في ظل وجود الاتحاد
السوفييتي .

يفجيني سيدوروف

رئيس دائرة الإعلام بمؤسسة " الرسالة "

مدير إذاعة " الرسالة " - موسكو



الهوامش

- ١ - لقد أدلى بتصريح بهذا الصدد في نهاية عام ١٩٠٣ (اللورد كيرزون) في أثناء اجتماعه مع مشايخ بعض الإمارات الخليجية .
- ٢ - تحفظ النسخة الأصلية لتقرير البروفيسور بوغويا فلينسكي في (أرشيف سياسة روسيا الخارجية) .
- ٣ - حدث ذلك في مارس عام ١٩٠٠ .
- ٤ - لقد اشتهر "فارياج" بمشاركته في الحرب الروسية اليابانية، حيث أبدى أفراد طاقمه شجاعة منقطعة النظير أثناء محاربة الأسطول الياباني عام ١٩٠٤ . وقد دارت المعارك البحرية الرئيسية في منطقة (تشيمولبو) الكورية . وعندما غدا خطر استيلاء اليابانيين على الطراد (فارياج) وشيكا، قرر قبضانه إغراق السفينة عمداً ، ولقي البحارة الأبطال مصرعهم جميعاً، لكنهم لم ينسلخوا أمام العدو . . .